التصوف الإسلامي والطرق الصوفية

للعلامة الفرنسي رينيه جينو
ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود

ربما كانت العقيدة الاسلامية ، من بين العقائد الموروثة هي العقيدة التي يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين هما (الظاهر) و (الباطن) أعني (الشريعة) وهي الباب الذي يدخل منه الجميع ، و (الحقيقة) ولا يصل إليها إلا المصطفين الأخيار . وهذه التفرقة ليست تحكمية ؛ وإنما تفرضها طبيعة الأشياء ، ذلك أن استعداد الناس يتفاوت وبعضهم مزود بفطرته لمعرفة الحقيقة .

وكثيراً ما نجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب ؛ أو بالدائرة ومركزها .

والشريعة تتضمن فضلا عن الناحية الاعتقادية — الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية ، وهما إجزءان لا يتجزآن عن الدين الاسلامي : إنها أولا وقبل كل شيء قاعدة للسلوك ، أما الحقيقة فانها معرفة محضة ؛ ولكن يجب أن نعلم أن هذه المعرفة هي التي تعطي للشريعة معناها السامي العميق ؛ بل هي التي تبرر وجود الشريعة . إنها حقيقة - وإن لم يشعر بذلك المؤمنون - المركز الأساسي : مثلها في ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها .

بيد أن (الباطن) لا يعني فقط الحقيقة وإنما يعني كذلك السبل الموصلة إليها ، أعني : الطرق التي تقود الانسان من الشريعة إلى الحقيقة .

وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية : الدائرة ومركزها ، قلنا : إن الطريقة هي الخط الذاهب من محيط الدائرة إلى المركز ؛ وكل نقطة على محيط الدائرة هي مبدأ الخط . وهذه الخطوط التي لا تحصى تنتهي — كلها — إلى المركز .

إنها (الطرق) وهي طرق تختلف تبعا لاختلاف الطبائع البشرية .

ولهذا يقال : (الطرق إلى الله كنفوس بني آدم) .

ومهما اختلف فالهدف واحد : لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ،

وإلا حقيقة واحدة . على أن هذه الاختلافات الموجودة فى المبدأ تزول شيئا فشيئا مع زوال الآنية وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا تزول فيها (صفات العبد) التى ليست إلا سجنا (الفناء) فلا تبقى إلا الصفات الربانية وقد تحققت (الذات) بها : (البقاء) .

والطريقة والحقيقة مجتمعان يطلق عليهما : التصوف . وهو ليس مذهبا خاصا : لأنه الحقيقة المطلقة ، وليست الطرق مدارس مختلفة ، لأنها طرق ، أى : سبل موصلة جميعها إلى الحقيقة المطلقة . (التوحيد واحد) .

ويجب أن يلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفى اللهم إلا إذا كان ذلك منه جهل محض ، لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفى : وذلك أن هذه الصفة (سر) بين الصوفى حقيقة وبين ربه . ويمكن أن يقول الإنسان عن نفسه إنه متصوف وهو عنوان يطلق على (السالك) فى أى مرحلة كان . ولكن الصوفى بمعناه الحقيقى لا يطلق إلا على من بلغ الدرجة العليا . أما أصل هذه الكلمة : صوفى ، فقد اختلف فيه اختلاف كبير ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض وكلها غير مقبولة . إنها فى الحقيقة تسمية (رمزية) وإذا أردنا تفسيرها ينبغى علينا أن نرجع إلى القيمة العددية لحروفها ، وإنه لمن الرائع أن نلاحظ أن القيمة العددية لحروف ، صوفى . تماثل القيمة العددية لحروف : (الحكمة الإلهية) ، إنه (العارف بالله) إذ أن الله لا يعرف إلا به . وتلك فى الدرجة العظمى (الكلية) فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

من كل ما سبق يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئا أضيف إلى الدين الإسلامى إنها ليست شيئا أتى من الخارج فألصق بالإسلام ؛ وإنما هى ، بالعكس ، تكون جزءا جوهريا من الدين إذ أن الدين هو بدونها يكون ناقصا بل يكون ناقصا من جهته السامية أعنى جهة المركز الأساسى . لذلك

كانت فروضا رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية إلى أصل أجنبى : يونانى أو هندى أو فارسى ، وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطا وثيقا . وإذا كان هناك من تشابه بين الصوفية وبين مايماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى لايحتاج إلى فرض الاستعارة . وذلك أنه مادامت الحقيقة واحده فإن كل العقائد السنية تتحد فى جوهرها ، وإن اختلفت فيما تلبسه من صور .

ويجب أن لانعطى عناية كبيرة - حينما نتحدث عن أصل التصوف - لتلك المناقشات التى لا تنتهى بين مؤرخى التصوف خاصة بتحديد الفترة الزمنية التى وجدت فيها لفظة صوفى فإن الشىء قد يوجد قبل اسمه الخاص ، سواء وجد تحت اسم آخر أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته . . وعلى كل حال ففيصل الحق فى مسألة أصل التصوف هو مايأتى : إن السنة ترشد فى صراحة لالبس فيها إلى أن الشريعة والحقيقة ، كليهما ينبعان مباشرة من تعليمات الرسول صلوات الله عليه . والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على (سلسلة) تصل دائما إلى الرسول . وإذا كانت بعض الطرق ، فيما بعد (استعارت) أو بتعبير أصح (تبنت) بعض التفاصيل فى الطريق (وإن كان التشابه هنا أيضا يمكن أن يعزى إلى التماثل فى المعارف وعلى الخصوص فيما يتعلق (بعلم المقاطع والأوزان) فى مختلف فروعه) فإن أهمية ذلك لاتعدو أن تكون أهمية ثانوية لاتمس الجوهر من قرب أو من بعد .

والحق أن التصوف عربى إسلامى كما أن القرآن - الذى يستمد التصوف أصوله منه مباشرة - عربى إسلامى . وإذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعى ألا يوجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر تدبرا تتفجر عنه ينابيع (الحقائق) التى هى فى الواقع معناه العميق . ولقد فسر القرآن أولا لغويا

ومنطقيا وكلاميا ، ولكن تفسيره صوفيا اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق وشمول . وإذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معا فلا يمكن أن يوجد بينهما تناقض أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لاتقوم إلا على الشريعة فى أساسها وفى سندها .

ولابد فى التصوف من شرط جوهرى هو (التأثير الروحى) أو بتعبير أدق (البركة) وهى لاتتأتى إلا بواسطة (شيخ) ومن هنا كانت (الطرق) ، ومن هنا كانت السلسلة وهل السلسلة إلا بركات تنتقل من شيخ إلى مريد يوشك أن يصبح شيخا فيؤثر بدوره فى مريد أو مريدين ؟

ونختم هذه الكلمة بملاحظة جوهرية تتعلق بطبيعة التصوف وهى أن التصوف ليس عملا عليا ولا بحثا نظريا ، إنه لايتعلم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لايستخدم إلا كحافز مقو للتأمل ، والإنسان لايصير ، بمجرد قراءته متصوفا . على أن ما كتبه كبار الصوفية لايفهمه إلا من كان أهلا لفهمه . ولأجل أن يسير الإنسان فى طريق التصوف لا بد له من :

١ — استعداد فطرى خاص لايغنى عنه اجتهاد أو كسب .

٢ — الانتساب إلى (سلسلة) صحيحة ، إذ أن البركة التى تحصل من الإنتساب إلى السلسلة الصحيحة هى الشرط الأساسى الذى لايصل الإنسان بدونه إلى أى درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها .

ثم يأخذ المتصوف ، الطيب الفطرة ، الذى باركه شيخه فى الجهاد الأكبر : التأمل الروحى ، وفى الذكر : أى استحضار الله فى كل مايأتى ومايدع ، وفى تركيز الذهن فى الملأ الأعلى فيصل موفقا من درجة إلى درجة حتى يصل إلى أعلا الدرجات ، وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانيا . ذلك هو الصوفى الحقيقى .